جمال الدين القاسمي
علاّمة الشام

عدنان صادق الدبسي*

ليست هذه الدراسة ترجمة كاملة لسيرة القاسمي، وإنما هي لمحات لبيان الدور الذي قام به لتجديد المنهج السلفي في بلاد الشام، وعمله الإصلاحي فيها لإيضاح جهوده في خدمة السنة النبوية، ثم لتذكير الخلف بما كان عليه العلماء العاملون .

وهذه بعض أقوال العلماء فيه أجعلها مدخلاً لهذه الدراسة:

إذا كان عمل جمال الدين القاسمي للإصلاح وتجديد علومه صغيراً في نفسه، فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه، فما القول إذا كان كبيراً في الواقع، وقد عَظُمَ المطلوب وقلَّ المساعد . لقد أحيا السُنّة بالعلم والعمل، والتعليم والتهذيب والتأليف، وكان أحد حلقات الاتصال بين هدي

* ولد بمدينة دمشق عام ١٣٦٠هـ، وفيها تلقى تعليمه بمراحله المختلفة، نال شهادة إجازة في الحقوق من جامعة دمشق ودراسات شرعية فيها ، نال درجة الماجستير في الدعوة والإعلام من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمل في جهات تعليمية وإعلامية. يعمل بإذاعة الرياض مذيعاً منذ عام ١٣٩٣هـ.

أعدّ عدداً من البرامج لإذاعة الرياض وإذاعة القرآن الكريم منها:

برنامج إقرأ- وهو برنامج مسابقات-، أعلام المفسّرين، آفاق قرآنية، مع الجيل القرآني الأول، مع أهل الحديث، من المكتبة القرآنية، المجلة الإسلامية، من روائع الحضارة الإسلامية.

إضافة إلى اختيار وتقديم طائفة من أقوال الرسول ﷺ وهي مسجلة في أكثر من (٨٠٠) حلقة، وتقديم برنامج من المكتبة السعودية. متزوج وله ولدان وبنتان.

السلف والارتقاء الذي يقتضيه الزمن .

محمد رشيد رضا

المنار ج/٧م/١٧ ص ٥٥٨

لا تحضرني عبارة تُشعر بمبلغ الحزن الذي نال دمشق بفقد مَنْ كان عالمها الكبير، وأُستاذها الفاضل النحرير، جمال الدين القاسمي، فقد كان أحد أفراد هذا العصر المعدودين في التحقيق بأسرار الشريعة، وهو لامراء عالم الكتاب والسنّة بلا مدافع، خُلِق ليعمل على بعث الدين المبين، خالياً من حشو المتأخرين الجامدين، وتضليل المُتَحرِّفين .

محمد كرد علي

صحيفة المقتبس

وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه حناجرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف الشيخ جمال الدين القاسمي.

الأمير شكيب إرسلان

من مقدمة كتاب قواعد التحديث للقاسمي

مع ماكان جمال الدين القاسمي عليه من الفضل الوافر، والأدب الباهر، والورع الظاهر، والنسب الطاهر، والذّب عن الشرع المبين، وقوة الإيمان واليقين، ومناضلة الجامدين والملحدين، فقد اعترف له الموافق والمخالف:

أَحيا به الله الشـــريعة والهدى وأقـام فيـه شعـائر الإســلام
حِكَمٌ على أهل العقول يبثُّها منعوتة الأوضـاع والأحـكام
ويُريك في ألفـاظـه وكـلامه سِحْرَ العقول وحيرة الأفهام

محمود شكري الألوسي- بغداد

أقاسمكم الأسف والغم على مصيبتنا، ومصيبة الإسلام، بفقيد العلم والإصلاح، جمال الدين القاسمي رحمه الله. واحسرتاه على عدم اجتمـاعي به، وانتفاعي بملازمته. أسأل الله تعالى أن ينفعني والأمة الإسـلامية بآثـاره النافعة .

محمد نصيف – جدة

القاسمي مجدد لعلوم الإسلام، محيي السـنة بـالعلم، والعمـل، والتعليـم، والتهذيب، والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقـاء المدني الذي يقتضيه الزمن، الفقيه الأصولي، المفسر، المحدث الأديب، التقي، النزيه، صاحب التصانيف الممتعة، والأبحاث المقنعة .

محمودمهدي الاستانبولي

صديق القاسمي

عصر القاسمي:

عاش جمال الدين القاسمي في أشد أيام الظلم والظلام، حيث الحريـات مفقودة، والصحافة مكبّلة، مع فساد في القضاء، وانتشار الرشوة. وكـانت

الحياة الثقافية في بلد القاسمي شبه مفقــودة، فـلا مـدارس ولا جامعـات ولا معاهد؛ لذلك اعتمد قلة من الناس على الكتاتيب وحلقات المسـاجد. وقـد هيأ هذا انتشار الأمية، حتى لتصل الرسالة إلى أحد الناس في الحي فيبحث عمن يقرؤها، وتصل الصحيفة إلى أحد المتعلمين فيتحلّق حوله الناس، وقـد انعكس هذا كلّه على الحياة الدينية، فجمود على القديـم، ومتـون يحفظهـا الطلاب من غير فهم، وتقليد أعمى بعيد عن الدليل من الكتاب والسنة.

ومن المدهش أن كتب الحديث النبوي كانت تقرأ في الأغلب للتبرّك، وكتب تفسير القرآن كـانت ممتنعـة عـن الخاصـة والعامـة . وكـان يكفـي الطالب أن يقرأ بعض كتـب الفقـه لتوضـع علـى رأسـه عمامـة، ويلتحـق بركـب العلمـاء، مـع أن البحـوث الفقهيـة لم تكـن بالمسـتوى الـذي يخـدم أغراض الشريعة، وبعيدة عن منهج أصحـاب المذاهـب المعتمـدة . أضـف إلى هذا انتشار البدع والخرافات والقبوريين .

في هذا الجو نشأ القاسمي، لذلك حينما تصدّى للإصلاح كان غريبـاً على أهل عصره فمضى في سبيله على الرغم من العوائـق والمعوقـات حتـى تحقق له كثير مما أراد مؤيداً بتوفيق الله تعالى.

وكان يحضر مجالس الشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام، وقد اسـتفاد القـاسمي مـن علمـه وعقيدتـه الأثريـة وهديـه وأخلاقـه المرضية ما لم يستفده من غيره .

وصحب الأستاذ الشيخ طاهراً الجزائري، فاستفاد مـن صحبتـه علمـاً

بحال العصر، ومعرفة بنوادر الكتب، وغرائب المسائل .

وصحب العالم المستقل سليم البخاري، وأتراباً من خيرة شبان العصر، كرفيق العظم، ومحمد كرد علي، فكان لصحبة هؤلاء الشيوخ والشبان وهم خير من أنبتت الشام في هذا الزمن، تأثير عظيم في حياته العلمية، حيث فتحت -لاستعداده الفطري واستقلاله الوهبي- أبواب البحث والتحقيق وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد، ونبهته إلى حاجة الأمة إلى الإصلاح المدني كحاجتها إلى الإصلاح الديني .

ودرس القاسمي علم الفلك على الشيخ عبدالقادر الطنطاوي، وعائلة الطنطاوي من بيوت العلم بالشام جاءت من مصر .

ولقد كان جميع أساتذته من المعجبين به وبنبوغه، والمقرين بفضله يقولون عنه: إن له مستقبلاً زاهراً .(١)

سيرة القاسمي الشخصية والعلمية:

هو جمال الدين سعيد بن قاسم -الملقب بالحلاّق - القاسمي الدمشقي، والقاسمي نسبة إلى جده المذكور، وقد كان فقيهاً صالحاً ، وكان أبوه سعيد فقيهاً أيضاً، وأديباً .

ولد القاسمي في دمشق عام ١٢٨٣هـ - ١٨٦٦م ، وكانت وفاته فيها عام ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .

نشأ القاسمي في بيت علم وتقوى، فتلقّى عن والده الشيخ سعيد، ثم

(١) شيخ الشام، بقلم محمود مهدي الاستانبولي، ص ١٦ .

التقى بكثير من العلماء، من أمثال الشيخ سليم العطّار، وكان يحضر مجالس الشيخ عبدالرزاق البيطار.[١]

وكان القاسمي منذ أن وعى على نفسه يعمل على تهذيبها، وظهرت عليه مخايل النبوغ مبكراً، ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة، ولم يقيّد شاردة . وهكذا لم يكتف بدراسة العلوم الشرعية، بل درس أيضاً العلوم العصرية .

انتدبته الحكومة بإلقاء الدروس العامة في القرى والمدن في بلاد الشام، فأقام في عمله هذا أربع سنوات من ١٣٠٨هـ - ١٣١٢هـ .

رحل القاسمي إلى بيت المقدس، ثم رحل إلى مصر مع صفيّه وصديقه الشيخ عبدالرزاق البيطار، واجتمع فيها بالشيخ محمد عبده - مفتي مصر - وبمحمد رشيد رضا مرات عديدة، وقام برحلة إلى المدينة المنورة والتقى فيها ببعض علمائها .

مآثره وشمائله:

وعن مآثره وشمائله أقتبس هذه السطور التي كتبها محمد كرد علي حيث قال:

(إن جماع الأسباب التي نجح بها القاسمي، طهارة نفسه من المطامع الدنيوية، وشغفه بالعلم لذاته ونفعه في إنارة القلوب، وأنه منج في الدنيا والآخرة. فهو لم يجعل الدين سُلّماً إلى الدنيا، بل فرّغ قلبه ووقته للعمل النافع، فبارك الله بساعات عمره القصير)[٢] .

(١) شيخ الشام، بقلم محمود مهدي الاستانبولي، ص ١٦ .

(٢) مجلة المقتبس الدمشقية .

ولو عددنا ماكتبه من مصنفاته، أو قسناه بالنسبة لهذا العصر، لما قلّ عن اللحاق بالمكثرين من التأليف .

وتذرّع القاسمي بعامة ذرائع النفع لهذه الأمة، فكان إماماً في تآليفه الوفيرة، إماماً في دروسه الكثيرة، إماماً في محرابه ومنبره ومصلاّه، رأساً في مضاء العزيمة، رأساً في العفة، وهذه الصفة هي السرّ الذي دار عليه محور نبوغه؛ لأنه لو صانع طمعاً في حطام الدنيا لما خرج عن صفوف أهل محيطه.

كان القاسمي إذا لقيه المماحك في أحد المجامع عرضاً، أو غشيه في درسه أو بيته ناقداً أو ناقماً ، علمه من حيث لا يشعر، وهداه إلى المحبة بكيّس القول، فإذا أيقن أنه من المكابرين أعرض عنه وقال: (سلاماً) .

جاء القاسمي في عصر زهد الناس فيه في العلوم الدينية إلا قليلاً فأعاد إليها في هذه الديار شيئاً من بهائها السابق، ولقد كان يجتمع به الموافق والمخالف، فما كانا يصدران عنه إلا معجبين بعقله، مقرين بفضله، معترفين بقصور كثير من المشاهير عن إدراك شأوه، يخلب الألباب، ويستميل العقول، فكأنه خلق من معدن اللطف، ورقة الشمائل، ولم تجد الغلظة سبيلاً إلى قلبه، ولا الفظاظة أثراً في كلامه وقلمه .

رأيت رجالاً كثيرين في مصر والشام خاصة، فلم أر همة تفوق همة القاسمي، ولا نَفَساً طويلاً على العمل ودؤوباً عليه أكثر منه، ولا غراماً

بالاستفادة ولا حباً بالعلم للعلم، فقد قضى عن (تسعة وأربعين) عاماً، وخلّف ماخلّف من عشرات المصنفات النافعة؛ منها تفسير، ومنها مقالاته الممتعة، وأبحاثه المستوفاة، وأثّر في عقول كثير من الطلبة تخرّجوا به، وأخذوا أحكام الحلال عنه، ودَعْ دروس وعظه للعامة أو حلقات خاصته، ومع كل هذا كان حتى الرمق الأخير أشبه بطالب يريد أن يجوز الامتحان لنيل الشهادة العالية .

رزق الله العلامة القاسمي صفات إذا جمع بعضها لغيره، عُدَّ قريع دهره، ووحيد عصره. فقد كان طلق اللسان، طلق المحيا، وافر المادة، وافر العقل، سريع الخاطر، سريع الكتابة. ما اجتمع به أحد إلا تمنّى لو طال بحديثه استمتاعه؛ ليزيد في الأخذ عنه، والاغتراف من بحر علمه .

وبينما ترى القاسمي على قدم السلف الصالح، عالماً كبيراً بين الفقهاء، والأصوليين، والمحدثين، والمفسرين، إذا هو من المختصين بالأدب.

وبينما تراه يؤلف إذا بك تراه يواظب على التدريس لطلبته، أو وعظه المستمعين في دروسه وخطبه . ومع كل هذه الأعمال تراه يهشُّ ويبشُّ كل ساعة، ويفسح من وقته شطراً ليغشى مجلسه أخلاؤه وطلاب الفوائد منه .

ويصف محمد رشيد رضا -القاسمي- فيقول:(كان من أكمل ما رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله، غضيض الطرف، خافض الصوت، كثير الإطراق، خفيف الروح، دائم التبسم).

اتهمه خصومه – فيما اتهموه – بالوهابية، فلم يأبه لهم، ولا لاتهامهم؛ لأنه يعرف أن ما اتهموه به ما هو إلا منهج السلف الصالح،

ولذا فقد مضى في دعوته، دون أن يلقي إلى هذه التهمة بالاً ، مع ما كان يمكن أن يتعرض المتهم بها من الأذى، والنكال في عصره، بل كان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح يزداد قوة وإصراراً .

القاسمي ومنهجه في الدعوة بين التأثر والتأثير:

ارتكزت دعوة القاسمي الإصلاحية على المنهج السلفي، إذ كان يدعو المسلمين إلى العودة إلى الكتاب والسنة، وكان يعمل على محاربة الخرافات والبدع التي التصقت بعقائد المسلمين وبسلوكهم .

وكان يدعو علماء عصره إلى عدم قبول آراء الفقهاء المتقدمين عن اتباع وتقليد، بل بالدليل من الكتاب والسنة .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو، كيف توصّل القاسمي إلى معرفة هذا المنهج السلفي في منطقة غالبية علمائها يدور بين الجمود في الدين والبدعة في الاعتقاد؟

إذاً فلا بد أن القاسمي قد تأثر بمن سبقه من الأئمة الأعلام، ويمكن إيضاح ذلك فيما يأتي:

تأثر القاسمي بابن تيمية:

جاء القاسمي بعد قرون عديدة من وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكانت دعوة ابن تيمية قد ضعفت في بلاد الشام، إلا أن كتبه ومؤلفاته وفتاويه موجودة في بعض المكتبات.

وهكذا شرع القاسمي بقراءة هذه المؤلفات المتوافرة (بل قام في أول عهده بنشر آثار ابن تيمية، فنشر مجموعة من رسائله في مجلدين، وكان

دائماً ينوه بفضله في دروسه ويستشهد بتفسيره بالنقل عنه)[١] .

وفي رسالة منه إلى الشيخ محمد نصيف في جدة، يؤكد فيها القاسمي تأثره بابن تيمية فيقول: (... ولقد أدخل السيد شكري أفندي علي السرور الزائد، بما نوه لي عن فضلكم وصلاحكم وكَمالِكم ، وغيرتكم على نشر آثار السلف، لا سيما آثار شيخ الإسلام رحمه الله، فإن هذه غاية أمنيتنا، ونهاية رغبتنا، وقد حمدت الله تعالى وشكرته على أن قيض لهذا الشأن أمثالكم، ومن مدة كنت كاتبت السيد شكري أفندي، وعَرّفته بأنّ محبي السلف من الواجب عليهم الآن أن ينهضوا لإحياء آثارهم ونشرها..)[٢]

ثم يشير القاسمي إلى أن وفاة شيخ الإسلام كانت بدمشق، وأن رسائله وكتبه موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق، ويعدد القاسمي بعض كتبه ورسائله . ويتابع القاسمي كلامه فيقول: (وقد أمر السيد شكري أفندي أن أعرض ذلك عليكم، وهو يعلم أنني ممن يتعشقون آثار شيخ الإسلام، ويسعى لها جهده، حتى إني كنت جمعت ثماني وعشرين رسالة بخطي، استكتبت منها من بلاد شاسعة، ثم طُبعت في مصر من نحو عامين... والآن عندي من رسائله وفتاويه الصغرى ما أَعُدُّه أعظم كنز...)[٣] . ثم يقول في موضع آخر من هذه الرسالة: (ولا يخفى فضلكم

(١) جمال الدين القاسمي، بقلم محمود مهدي الاستانبولي، ص ٤٩ .
(٢) جمال الدين القاسمي، بقلم ظافر القاسمي، ص ٥٨٥/ ٥٨٦ .
(٣) المرجع السابق، ص ٥٨٧ .

أن أعظم واسطة لنشر المذهب السلفي هو طبع كتبه، وأن كتاباً واحداً تتناوله الأيدي على طبقاتها خير من مئة داعٍ وخطيب؛ لأن الكتاب يبقى أثره، ويأخذه الموافق والمخالف. وأَعرِف أن كثيراً من الجامدين اهتدوا بواسطة ما طبعناه ونشرناه، اهتداءً ما كان يُظن، والحمد لله على ذلك).

وينهي رسالته بقوله:

(وما أظن ترون في الشام من له غَيْرَةٌ على آثار الشيخ رضي الله عنه أمثالنا، فالآن آن الأوان ، وما بقي إلا الاهتمام...)(١)

وهي رسالة طويلة، كلها تدور في رغبة القاسمي واهتمامه بنشر المذهب السلفي عن طريق نشر كتب ابن تيمية رحمه الله .

ويؤكد القاسمي هذا في رسائل أخرى إذ يقول:

(إني ولله الحمد، نشأت على حب مؤلفات شيخ الإسلام، والحرص عليها، والدعوة إليها، وأعتقد أن كل من لم يطالع فيها، لم يشم رائحة العلم الصحيح، ولا ذاق لذة فهم العقل، وهم يعلمون ما ندعوا إليه، وما نسعى لإشهاره: فَطَوْراً يرموننا بالاجتهاد، وطَوْراً بما قدمنا، وسيأخذ الحق بناصيتهم إن شاء الله)(٢)

ويتكرر هذا الحرص على مؤلفات ابن تيمية في مواضع أخرى كثيرة، يجدها المتتبع لتلك الرسائل في هذا الكتاب الذي أشرت إليه .

(١) جمال الدين القاسمي، بقلم ظافر القاسمي، ص ٥٨٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٥٩٦ .

ويغلب على ظني أن ما عرضته لا يحتاج قارؤه إلى كبير عناء، لاستخلاص تأثر القاسمي بابن تيمية، بل هو يؤكد أن المرء لا يشم رائحة العلم الصحيح، ولا يذوق لذة فهم العقل ما لم يطالع تلك المؤلفات والكتب التي خلفها ابن تيمية للأجيال من ورائه .

بعد هذا أقول: إنه من نافلة القول أن أشير إلى تأثر القاسمي بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تلك الدعوة التي انتشرت في مناطق متعددة من العالم العربي والإسلامي، وهي الدعوة التي حرصت على نشر الإسلام بشكله الصحيح، والعودة بالمسلمين إلى الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح من أمثال ابن تيمية وابن القيم . لذلك سوف تلقى هذه الدعوة صدى في نفس القاسمي.

بل إن كاتباً باحثاً بدارة الملك عبدالعزيز وهو: محمد كمال جمعة، يؤكد هذا فيقول: (انتهت المشيخة العليا في بلاد الشام في أوائل هذا القرن إلى الشيوخ الأجلاء: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبدالرزاق البيطار، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد كامل قصاب، فدرسوا دعوة الشيخ محمد عبدالوهاب فأعجبوا بها، وقدروها حق قدرها، ورأوا أنها على حق وصواب، فنشروها في المجتمع الشامي، وبذروا بذورها، فأثمرت أطيب الثمار وانتجت أبرك النتائج..)(١)

ويشير الاستانبولي إلى منهج القاسمي في الدعوة فيقول:·

---

(١) انتشار دعوة الشيخ محمد عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية، ص ١٢٩ وما بعدها .

(وكان القاسمي يدعو إلى التوحيد الصحيح، الذي كان يدعو إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد ناظر كبار العلماء في التوحيد، وأوضح لهم ما داخله من الشرك الذي هو أعظم من شرك المشركين، فقد كان الكفار يدعون الله وحده في الشدائد، بعكس المبتدعين في زماننا، الذين ينسون الله عند الشدائد ويدعون غيره)(١) .

وهكذا يتبين لنا كيف تكوَّن لدى القاسمي النهج السلفي، بعد توفيق الله ورعايته حيث تظافرت مؤثرات عديدة، فقد تأثر ابتداء بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وبدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، إضافة إلى تأثره ببعض معاصريه، وبمؤلفاتهم، وكتاباتهم، من أمثال محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وبغير هؤلاء ممن التقى بهم في مكة المكرمة والمدينة في رحلاته إليهما.

ولكن ماهو تأثير دعوة القاسمي الإصلاحية ؟ وماذا عن نشاطه في إحياء المنهج السلفي في بلاد الشام ؟

لقد أكد لنا طائفة من معاصريه، ممن عرفوا القاسمي، وعرفوا صدقه في دعوته، وقواعد المنهج الذي يدعو إليه، أكد هؤلاء أن القاسمي قد تمكن من إحياء السلفية في بلاد الشام، وأنه نجح نجاحاً موفقاً في عمله الإصلاحي، وفي دعوته إلى الله تعالى، بالرغم من المعوقات الكبيرة التي

---

(١) جمال الدين القاسمي، بقلم الاستانبولي، ص ٢٨.

أقامها أمامه الجامدون والخرافيون، والمتعصبون للباطل والجاهلون .

فقد قال الإمام محمد رشيد رضا: (كان -رحمه الله تعالى- يقرأ الدروس العربية والشرعية للطلبة والعامة، ويخطب في المسجد خطبة الجمعة، ويصنف الرسائل والأسفار الممتعة، ويصحح مايرى نشره نافعاً من كتب المتقدمين ويشرح المختصر، ويختصر المطول منها، ويسعى في طبعها ونشرها، ويبث روح الاستقلال والاستدلال في ذلك كله، مع الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فكم سعى فيه ، وكَاد له، أولئك المعممون الجامدون، فأنجاه الله منهم. وإن أكبر الكبائر التي يَتَّهِمُون بها كل من يدعو مثله إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي محاولة هدم الدين، بفتح باب الاجتهاد والاستدلال، وما يستلزمه ذلك بزعمهم من تحقير الأئمة ومن اتبعهم من علماء الأمة . كان له -رحمه الله تعالى- دروع سابغات من أخلاقه وسيرته، تَقِيه بَغْي أعداء العلم والإصلاح من حُسَّاده، إذ كان نزيه اللسان بعيداً عن المِراء والجدل، متجنباً للازدراء بغيره، أو مدح نفسه... إلى ماكان عليه من العبادة والعفة والاستقامة.(١)

ويقدم لنا العلامة محمد كرد علي صورة أخرى للعصر الذي عاش فيه القاسمي وما لاقى من صعوبات، وما واجه من معوقين، حتى تمكن بفضل الله من نشر الدعوة السلفية فيقول: (لقد أصبحت العلوم رسمية، والمدارس

(١) المنار، ج/٧ م/١٧، ص ٥٦٠ .

صورية، والأوقاف المحبوسة على الشيوخ مأكولة مهضومة .. ولكن إرادة المولى سبحانه قضت بأن لا تحرم هذه الأمة من أعلام يصدعون بالحق، فيجددون لها أمر دينها، ويستطيبون الأذى في إنارة العقول و الرجوع بالشرع إلى ماكان عليه الرسول ﷺ وصحابته والسلف الصالح . من هؤلاء المجددين نابغة دمشق، فقيدنا - جمال الدين القاسمي - الذي يعرفه قراء هذه المجلة، بما نشر في سنيّها الماضية من آثار علمه وآدابه و لم يُعْفِه عن الاشتغال مالقيه من تثبيط المثبطين في أول أمره أو تنقيص الحاسدين في أواسط عمره، ممن لا يخلو منهم مصر ولا عصر).

لقد عمل القاسمي على إعادة المسلمين إلى النهج الصحيح، فاتهموه بأنه صاحب مذهب جديد، فمرة قالوا عن مذهبه: (المذهب الجمالي)، ومرة أخرى قالوا: (المذهب الوهابي)، فيرد القاسمي عليهم بقوله:(١)

زعم الناس بأنّ ... مذهبي يدعى الجمالي
مذهبي ما في كتا ... ب الله ربي المتعالي
ثم ماصح من الأخبا ... ر لاقيل وقال
أقتفي الحق ولاأر ... ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلاً ... وعمىً في كل حال

وهكذا يمضي القاسمي في دعوته هذه إلى نهاية حياته، وقد تحقق له

---

(١) المنار ج/٨ م/١٧، ص ٦٣٣ .

بعض ما أراد، بل يقول الاستانبولي: (إن السلفية اليوم في بلاد الشام مدينة للقاسمي - إلى حد ما - الذي أحيا بذرتها، بعدماكادت تموت بعد ابن تيمية وابن القيم).(١)

ولقد خلف القاسمي تلامذة نهضوا بدعوته، وساروا في طريقه منهم: الشيخ محمد جميل الشطي مفتي المذهب الحنبلي بالشام -رحمه الله- الذي رثاه بقصيدة منها:

مهلاً عداة المصلحين عدمتكم إني لكم والله غير مسالم
ها نحن بالمرصاد أنصار الهدى ندعوا إلى الجولان كل مزاحم
إن كان مات القاسمي فإنكم سترون منا كل يوم قاسمي
نحمي طريقته ونرعى عهده في الحق لا نخشى ملامة لائم

وهذا أحد الدارسين على القاسمي وهو الشيخ بهجة البيطار يقول: (إننا جاوزنا عمر شيخنا بعشرات السنين، ولم نعمل ربع عمله ...)

وقد رثاه حين وفاته بقصيدة قال فيها:

ألا في سبيل الله ما نال شيخنا بدعوته وانتابه من متاعب
وأعجب من كل العجيب خصومه أفاعيلهم تقضي بكل العجائب
يسبّون من للدين قد جاء ناصراً ويرمونه حمقاً بكل المثالب
سندفع عن أُستاذنا طعن طاعن وندرأ عن أستاذنا إفك كاتب

هذه أمثلة يسيرة لمواقف بعض تلامذته تشير إلى المدرسة التي أسسها

(١) جمال الدين القاسمي للاستانبولي، ص ٤٤ .

القاسمي واستمرت بعده، ولكن القاسمي لم يخلف تلامذة وحسب، بل ترك مكتبة عامرة فيها التفسير والفقه والأصول والحديث وغير ذلك، وهي تشهد له بسعة علمه وسداد منهجه، وهي تحتاج إلى وقفة هادئة؛ لأنها جزء من برنامجه الإصلاحي ودعوته السلفية .

مؤلفات القاسمي:

ترك القاسمي مؤلفات كثيرة، إذا ما قيست بعمره القصير، حتى قيل: لعل الطريق وحده هو الذي خلا من قلمه.

لذلك من العسير عرض تلك المؤلفات التي تجاوز عددها الثمانين بين كتاب كبير ورسائل صغيرة ، ولكنني أود الإشارة إلى أبرزها والتي تشير إلى منهجه السلفي، وتبين لنا جهود القاسمي في خدمة السنة النبوية:

أولاً: محاسن التأويل: وهو تفسير كامل لكتاب الله العظيم.(١)

والقاسمي في تفسيره ينقل من كل تفسير خير مافيه، وامتاز تفسيره أيضاً بنقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية والاستشهاد بفتاويه وآرائه. وقد كتب -رحمه الله- آيات الكتاب العزيز بالحبر الأحمر، وكتب تفسيرها بالحبر الأسود بخط فارسي أنيق، وذلك من أول التفسير حتى نهايته. وجرى في تفسيره على إظهار أسرار الشريعة، وحقائقها على طريقة السلف الصالح حراً دون قيد، يفسر القرآن بالقرآن، وبما صح من الحديث النبوي، وبأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من مختلف المذاهب .

---

(١) طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٠ .

بدأ كتابة تفسيره عام ١٣١٧هـ وأتمه عام ١٣٢٩هـ ، وجاء هذا التفسير في ١٧ مجلداً، وقد كان موضع بحث لبعض الدارسين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ثانيا: كتاب دلائل التوحيد:(١)

يشير القاسمي في مقدمته إلى أهمية هذا العلم، وأنه علم إقامة الحجة والبراهين؛ لتأييد مباني أصول الدين، ورد شبه الملحدين .

فأورد أدلة التوحيد، وبراهين النبوة، ومعجزات القرآن الكريم وإعجازه.

ثالثاً: كتاب إصلاح المساجد من البدع والعوائد:(٢)

وهذا الكتاب يؤكد الدعوة الإصلاحية، التي عاش المؤلف حياته في سبيلها، وقد رصد القاسمي في هذا الكتاب أكثر البدع الشائعة في المساجد، وبين تاريخ تسربها ووجوب الامتناع عنها، ولم يقتصر بحثه على بلاد الشام، وإنما شمل جميع البلدان التي زارها، وقدم للطبعة الأولى محب الدين الخطيب بمقدمة أشار فيه إلى أنه الكتاب الوحيد المعروف بالعربية في هذا الموضوع .

رابعاً: قواعد التحديث من فنّ مصطلح الحديث:(٣)

وهو كتاب شامل لعلوم الحديث وفنونه، وجاء في تقديم شكيب أرسلان للكتاب قوله: (.. رأيت في هذا الكتاب، في حسن ترتيبه وتبويبه

(١) طبع بدمشق عام ١٣٢٦هـ، وطبع بالقاهرة، ١٤٠٦هـ

(٢) طبع بالقاهرة عام١٣٤١هـ، وطبع ببيروت، ١٣٩٠هـ و ١٣٩٧هـ .

(٣) طبع في دمشق ١٣٥٢هـ - ١٩٣٥م في أكثر من ٤٠٠ صفحة .

و تقريب الطرق على مريد الحديث، والإحاطة بكل ما يلزم المسلم معرفته من قواعد هذا العلم الشريف، وإني لأوصي الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها وتنعقد عليه حناجرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف الشيخ جمال الدين القاسمي ..)

وقال محمد رشيد رضا في تقديمه لهذا الكتاب:

(وقد بلغ المؤلف في مصنفه هذا النهاية من هذا العلم الاصطلاحي... وإننا لا نعرف مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية..).

وقد خصص القاسمي تسعة أبواب لمباحث الحديث:

فتحدث عن: فضله وعلومه ومصطلحاته ورواته وكتبه ومصنفيها ودرجاته، وما يحتج به، ومالا يحتج به، وحكم العمل به.

وجاء الباب العاشر في: فقه الحديث، ومكانه من أصول الدين والمذاهب فيه، هذا أبرز محتويات الكتاب .

خامساً: رسالة بعنوان: شذرة من السيرة النبوية:(١)

وقد أراد القاسمي من تأليف هذه الرسالة إبعاد المسلمين عن الكتب المتداولة التي تتضمن كثيراً من الخرافات والأساطير، وقد ضمنها فصلين هامين: أحدهما:في إعجاز القرآن، وثانيهما: في غرر من الوصايا النبوية.

---

(١) طبعت بمصر، عام ١٣٢١هـ .

سادساً: كتاب حياة البخاري:[١]

وهو ترجمة مختصرة للبخاري، أشار فيها إلى فقه البخاري واجتهاده المطلق، دلل على ذلك من اختيارات البخاري نفسها، وأنه كان يقف مع الدليل الذي يراه .

سابعاً: رسالة في المسح على الجوربين:[٢]

ذكر القاسمي فيها أدلة المسح على الجوربين من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ومذاهب الأئمة، وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك.

وقد قدّم المحدث أحمد شاكر لإحدى طبعات الرسالة بقوله:

(إن أستاذنا عالم الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ألف رسالة نفيسة في المسح على الجوربين طبعت في دمشق سنة (١٣٣٢هـ) وقد قرأتها وأخذت منها علماً جماً، وروحاً قوياً في ذلك العهد البعيد، حين كنا في مطلع الشباب، متشوقين إلى العلم الصحيح، علم الكتاب والسنة). وقد رصد محمود الاستانبولي في كتابه (جمال الدين القاسمي) أسماء مؤلفات القاسمي في ص ٧٣ .

وحسبي هذه الأمثلة اليسيرة من مؤلفات القاسمي رغبة في بيان جهوده في خدمة السنة والعقيدة السلفية.

آراؤه وأفكاره:

كتب القاسمي بقلمه كثيراً من الأفكار والآراء التي توضح نهجه

---

(١) طبع في صيدا، ١٣٣٠هـ .

(٢) مطبوعة.

أوطريقته في الإصلاح والتقويم، وتدل على عقله وسمو تفكيره من هذا مثلاً:

١ - **الدين مدرسة الأخلاق**: يقول القاسمي:

(دين الأمة هو مدرسة أخلاقها، ودستور عقولها، ومصباح حياتها، وقانون وجودها، فلا تشرف عواطف الأمة، وتتهذب ميولها، وتتزكى سرائرها إلا بالعقائد الصحيحة، ولا يصان نظامها من الخلل والتفرقة إلا بالدين، ولا يدفع خطر الفوضى التي تهوي بالشعوب من الهلكة إلى مكان سحيق إلا بالإيمان الصحيح، فبقدر تمكن العقيدة من نفوس أفراد الأمة تكون سعادتهم وقوام حياتهم).(١)

٢ - **وعن محاسن الإسلام وخصائصه**، يقول:

(إن من محاسن الإسلام انطباق أصوله على نواميس العمران، ووفاء قواعده بحاجيات كل زمان ومكان، وابتناء أحكامه على جلب المصالح ودرء المفاسد، وتميّزه برفع الآصار والأغلال، وفتحه أبواب اليسر والتيسير وسدّه مسالك الحرج والتعسير....ومن خصائصه: إرشاده لمناهج الاستنباط، وموارد التفقه والاستخراج حتى سهل على راسخيه ردّ كل ماينفع الناس إلى نصه ومحكمه، أومجمله وظاهره، وتطبيقه على سماحته، وتوفيقه على يسره ورحمته..)(٢)

---

(١) دلائل التوحيد، ص ١٣٤ .

(٢) إرشاد الحق، ص ٣ .

٣ - وعن مطابقة الشرع للعقل يقول القاسمي:

(العقل حجة الله القاطعة البالغة، وأصل براهينه الساطعة الدامغة، والنقل لايأتي بما يناقض العقل، وإنما يرد بما يزكي قضاه، ويصقل مرائي أحكامه أحسن صقل..، والذي عليه المحققون أن جميع الأحكام المشروعة؛ أصولها وفروعها، كلياتها وجزئياتها معقولة، وأن أحكامها وأسرارها: إما مذكورة بالعبارة أو الإشارة، أو بالتنبيه على أمثالها، أو مطوية، إحالة على اقتضاء العقل السليم، أو الفطرة، أو رعاية المصلحة، وأن عدم العلم ليس علماً بالعدم).(١)

السوانح:

كتب القاسمي كثيراً من السوانح، وهي خطرات تخطر على فكره، فكان يبادر إلى تسجيلها فوراً. من تلك السوانح تعليقه على خطباء الجمعة حيث قال:(قول بعض الخطباء الحشوية في خطبهم: روي أن الله تعالى أوحى في بعض كتبه إلى داود أو إلى فلان كذا وكذا، من الجهل الكبير . إن هذه الرواية لو كانت صحيحة لكان في القرآن الكريم غنى عنها وعن أمثالها، ولكن ما نصنع وهؤلاء الحشوية فوق رؤوسنا كل أسبوع، يسمعوننا الخرافات والموضوعات ما يرثي كل عاقل له.

- **وتحت عنوان بلاغة التنزيل** قال:

(خطر لي أن ما يستعمله بعض الكتاب من قولهم: [محبة حارّة] أو

(١) دلائل التوحيد، ص ١٢٩ .

[قام فلان بالعمل بهمة حارّة] ونحو ذلك له نظير في اللغة العربية، إذ ورد ماهو بمعنى ذلك، وأرق منه وألطف، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَاصَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾(١) فالحميم إشارة إلى حرارة الحب والصداقة والمودة والعطف والنصرة والاهتمام بالشؤون . فما يزعمه بعضهم أن التعبير بالحرارة جديد، هو قديم الاستعمال بألطف وأرق) .

مفكراته:

درج القاسمي على تدوين مذكراته في المفكرات المعروفة أو في بعض هذه المفكرات تسجيل لحوادث تاريخية، أو وصف لبعض رحلاته أو لقاءاته، مثال هذا ما سجّله عن الدروس المستفادة من النحل فقد كتب يقول:

(جاء في بعض المجلات العلمية أنه يستفاد من النحل ثمانية دروس.

١- تعلمنا النحلة المثابرة على العمل، فلم يُر أن نحلة تخلّت عن عملها قط.

٢- تعلمنا النحلة الإخلاص والطاعة؛ لأن كل النحل يحب ملكته ويطيعها.

٣- تعلمنا محبة الأوطان، فلا تترك النحلة بيتها إلا لوقت قصير وللضرورة.

٤- تعلمنا النظافة، فلا أنظف من بيت النحلة وخليّتها .

٥- تعلمنا الرفق والعطف على الآخرين، ولا سيما حين الحاجة، فلا تترك رفيقة لها في ضيق، ما لم تمد إليها يد المساعدة .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٠١ .

٦- تعلمنا وجوب الاستيقاظ باكراً .

٧- تعلمنا وجوب التمتع بالهواء النقي .

٨- تعلمنا المساعدة والمودة، فإنه قلّما نظر النحل يتشاجر أو تختلف الواحدة مع الأخرى) .

- **وعن حياة العلماء والحكماء**، كتب القاسمي:

(إن للعلماء والحكماء في هذه الدنيا حياتين:**حياة جسدية محدودة:** تبتدئ بيوم الولادة، وتنتهي بيوم الوفاة، وحب الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر الناس، بل سائر الحيوان، **وحياة عقلية روحانية غير محدودة:** وهي تبتدئ بظهور ثمرات عقولهم النافعة لأمتهم، أو تسعد من يجنيها من الناس، وتدوم مادام الزمان وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان.

- **وعن الترتيب**، قال:

(فضيلته تحمل صاحبها على العمل بما رتّبه لنفسه أوالاهتمام، وهي تنشط النفوس، وتريح البال، ويكون صاحبها مستجمعاً لفكرته، محافظاً على وقته.

- **وعن الإنسان والنبات**، قال:

لا ينبغي أن تكون من وظيفة المرء في الحياة دون النبات، ذاك يتطاول، وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء، وهم يطلبون الأرض، وكأنهم للموت مشتاقون).

إن آراء القاسمي وأفكاره، وسوانحه ومفكراته، وما تضمنت من قيم

توجيهية وتربوية ونقدية وتعليمية، يمكن أن تضاف إلى مؤلفاته القيمة التي تجاوزت مائة كتاب ورسالة. أما مكتبته ففيها من نوادر الكتب والمخطوطات.

هذه شذرات من سيرة علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، تبين بعض إسهاماته في نشر الدعوة إلى الله، وتجديد المنهج السلفي في بلاد الشام، وهو منهج يستهدف العودة بالمسلمين إلى الكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة.

ولعل هذه الدراسة تقرب هذه الشخصية العلمية السلفية إلى القارئ الكريم، وتوضح سمات دعوته المبنية على الحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن فنجحت وأثمرت أطيب الثمرات .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .